

وحدة السورة القرآنية عند علماء الإعجاز القدماء

إعداد:

د. بجيبى بن محمد عطيف

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية بكلية العلوم الإنسانية في جامعة الملك خالد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فموضوع هذا البحث "وحدة السورة القرآنية عند علماء الإعجاز القدماء" وهو حلقة رابعة في سياق دراستي لبلاغة القرآن وإعجازه التي بدأتها ببحث "من بلاغة الدعاء في القرآن الكريم" وأتبعها ببحثين آخرين هما: "من أسرار النظم في سورة النبأ" و "الإعجاز البلاغي في قصة نوح عليه السلام" وستليها حلقات أخرى إن شاء الله تعالى.

وأعني هنا الإعجاز البلاغي وعلماءه الذين لهم آراء ونظريات في قضية إعجاز القرآن، وألفوا فيها مؤلفات، تناولت وحدة السورة فيما تناولت من موضوعات.

ومن الدوافع إلى بحث هذا الموضوع زعم بعض المستشرقين الأوربيين بنظرتهم السطحية أن سور القرآن «مفككة الأجزاء، غير محكمة النظم، ولا واضحة الأغراض»^(١).

ومن الدوافع أيضا غلبة النظرة الجزئية على بلاغتنا العربية، والمعالجات الجزئية لبلاغة النص ومنه النص القرآني في تراثنا البلاغي والنقدي، واهتمام الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة بقضية وحدة العمل الأدبي وانصرافها من

(١) النظم الفني في القرآن: عبد المتعال الصعيدي، ٣، ٤، مكتبة الآداب ومطبعها بالجماميز، القاهرة (د.ت.).

الجزئيات إلى الكليات، والتجاوز في مفهوم البلاغة أو الجمال الفني من اللفظ المفرد والمركب والصورة الجزئية ممثلة في الشواهد والأمثلة المجتزأة إلى النص الأدبي بوصفه كلا متماسكا في وحدته ونظامه وانسجام أجزائه وتآلفها وتكوينها وحدة عضوية داخلية تنتظم في سياق معين.

وإيماننا مني بأن علم البلاغة ينبغي أن يهتم بالوحدة لأنها من أبرز المقومات في بلاغة النص وجماله ونجاحه ، وأنه على الرغم من غلبة النظرة الجزئية على بلاغتنا والمعالجة الجزئية في تراثنا لأسباب متعددة^(١). فإن بعض علماء الإعجاز لم يغفلوا النظرة الكلية العامة للنص القرآني خاصة ، يتضح ذلك من خلال حديثهم عن وحدة السورة القرآنية.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع لم يحظ بدراسة مخصصة تبسط القول في دراسة وحدة السورة القرآنية عند علماء الإعجاز، وتوضح جهودهم في دراسة هذه الخاصية البلاغية في السورة القرآنية تنظيرا وتطبيقا . وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ " أحمد أبو زيد " أشار باقتضاب في بضع صفحات من كتابه " التناسب البياني في القرآن " إلى آراء بعض علماء الإعجاز في وحدة السورة، مغفلا الحديث عن أهم جهودهم في هذه القضية على مستوى التنظير والتطبيق، وهي الجوانب التي اتجه اهتمامي إليها في هذا البحث.

وعلى أية حال فقد قدمت إليّ إشارات الباحث معونة مشكورة أثبتتها في مظانها. ويستهدف بحثي هذا التأسيس لقضية الوحدة في تراثنا البلاغي، وتأكيد صحة رأي علمائنا في ردهم على الطاعنين في القرآن والمشككين في إعجازه ونظمه وترتيبه، وأن يلفت أنظار عشاق القرآن والدارسين له إلى أهمية النظرة

(١) انظر: البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ٣٧٦ ، دار المعارف، مصر، ط/٥ (د.ت).

الكلية العامة للسورة والوقوف على وحدتها التي تساعد على إدراك صورتها العامة وموضوعاتها والروح الذي يسري بين آياتها، ويسيطر على مبادئها وتوجيهاتها، فيسهل حفظها وتدبرها وتذوقها وإدراك مقاصدها وأهدافها، ولا شك في أن هذه النظرة أكثر فائدة من النظرة الجزئية التي لا تتجاوز الجزئيات ولا تربطها بسياقها العام وصورتها العامة.

وقد اعتمدت في إعدادها على كتب علماء الإعجاز القدماء التي تحدثت عن وحدة السورة أو أشارت إليها كإعجاز القرآن للباقلاني ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني وتفسير الكشاف والإعجاز في سورة الكوثر للزمخشري والتفسير الكبير للرازي، واستعنت بالمراجع اللغوية والبلاغية والنقدية التي تتصل بموضوع البحث.

وجعلته في مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث وخاتمة.

تحدثت في التمهيد عن مفهوم الوحدة وقيمتها البلاغية.

وتناولت في المبحث الأول وحدة السورة عند الباقلاني.

وفي المبحث الثاني وحدة السورة عند عبد القاهر الجرجاني.

وتحدثت في المبحث الثالث عن وحدة السورة عند الزمخشري.

وتناولت في المبحث الرابع وحدة السورة عند الرازي.

وفي المبحث الخامس وحدة السورة وعلاقتها بعلم المناسبة عند الزركشي والبقاعي والسيوطي.

وقد نهجت في دراسته منهجا وصفيا تحليليا. أبدأ بعرض الآراء وتحليلها، مبينا طبيعتها وقيمتها.

وختمت البحث بخاتمة سجلت فيها أهم النتائج التي انتهت إليها.

هذا والله أسأل أن يجنبني الزلل، وأن يوفقني لخدمة كتابه العزيز والإسهام

في خدمة تراثنا البلاغي وإضاءته، والله الهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد مفهوم الوحدة وقيمتها البلاغية

الوحدة لغة الانفراد. جاء في لسان العرب: «رجل أَحَدٌ ووَحْدٌ ووَحِدٌ ووَحِيدٌ ومَتَوَحَّدٌ أي منفرد.. وحكى سيبويه: الوحدة في معنى التوحد، وتوحد برأيه: تفرد به...»^(١).

واستعمل اللفظ في «معنى الاتحاد أي صيرورة الاثنين أو ما فوقهما واحدا، أي لا تعدد فيه ولا اختلاف، ولا شك أن هذا هو هدف الوحدة، فإن التعدد ينافيها»^(٢).

وهذا المعنى ملحوظ في لفظ السورة الذي يتضمن معنى الإحاطة وتوحيد الأجزاء المتعددة. فالسورة هي القطعة من القرآن، قيل سميت بذلك تشبيها لها بسور البناء أي القطعة منه.

وقيل: أخذت من سور المدينة «لإحاطتها بآياتها واجتماعها، كاجتماع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد»^(٣).

وفي كليات أبي البقاء «الوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام»^(٤)، والوحدة الموضوعية في العمل الفني تعني:

(١) لسان العرب: ابن منظور، مادة (وحد)، دار صادر، بيروت، ط/٦، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، وانظر في المادة نفسها، القاموس المحيط: الفيروز أبادي؛ بولاق، القاهرة، ط/٣، ١٣٠٢هـ، والمفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ٥٣٠، دار المعرفة، بيروت، ط/١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

(٢) الوحدة الموضوعية في القرآن: د. محمد محمود حجازي، ٣٣، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٣) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢٦٤/١، دار المعرفة، بيروت، ط/٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

(٤) الكليات: أبو البقاء الكفوي، تح: د. عدنان درويش ومحمد المصري، ٩٣١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٣م.

«أن يكون العمل متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة؛ لأن العمل الفني يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها»^(١).

فالجزيئات فيه مترابطة متجهة نحو تحقيق الغرض أو الموضوع الرئيسي المحوري.

وقد حظيت الوحدة في السورة القرآنية بعناية بعض علماء الإعجاز القدماء كالبلاقلاني (ت ٤٠٣هـ) والرازي (ت ٦٠٦هـ) ووردت عندهم بمفاهيم متعددة متقاربة. منها الترابط والتناسب المعنوي بين آيات السورة والتناسق بين أجزائها^(٢).

ومنها أن يكون «لكل سورة غرضاً وهدفاً واحداً، تتجه بكل معانيها ومبانيها إلى إيضاحه وإظهاره، وروحاً خاصاً تشترك المعاني والألفاظ والصور والأصوات في تكوينه، ونقل تأثيره»^(٣).

- وإذا كانت الوحدة في السورة القرآنية تعني تناسق أجزائها وقوة ارتباطها وتناسب معاني آياتها ، وتعني أيضاً تمحورها حول موضوع وغرض عام تسعى

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام: د. حسن محمد باجودة، ١٥، مطبوعات تامة ، جدة، ط/٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) انظر: إعجاز القرآن، البلاقلاني، تح: السيد أحمد صقر، ٩- ١١، ٣٦، ٣٧، دار المعارف، مصر، ط/٤، ١٩٧٧م.

(٣) التناسب البياني في القرآن: أحمد أبو زيد، ٣٧٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢م. وانظر: التفسير الكبير: فخر الدين الرازي ٢٧/١١٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢١هـ.

إلى بيانه كما أشرنا ؛ فإن ذلك يعد «سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال»^(١).

وأعلى مراتب التلاحم البياني، وأعلى سمات البيان القرآني. فقد عد العلماء ذلك وجها من وجوه الإعجاز، وخاصة من جملة الخصائص التي انفرد بها النظم القرآني، ومظهرا من مظاهر التناسب البياني في القرآن الكريم^(٢). وإذا كان علماء الإعجاز يقررون ذلك فإنهم يتفقون فيه مع النقاد المحدثين الذين يؤكدون أهمية الوحدة والصلة بين أجزاء العمل الأدبي، ويعدون مقياس الوحدة العضوية من أهم مقاييس النقد الأدبي، ويدعون إلى أن تكون القصيدة الشعرية متماسكة الأجزاء مترابطة الصور متسقة الشعور، بحيث يصبح كل جزء منها بمثابة عضو حي في بنيتها الفنية^(٣).

ويتضح وجه الإعجاز في هذه الخاصية البيانية التي اتسم بها نظم القرآن وما هو عليه من حسن النظم ودقة الترتيب وقوة ارتباط الآيات إذا علمنا أن آيات السور لم تنزل على رسول الله ﷺ بهذا الترتيب الذي هو عليه الآن في

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : البقاعي ، تح : عبدالرزاق المهدي ، ٥/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/١ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٢) انظر: إعجاز القرآن ، ١٨٦ وما بعدها . والإنتقان في علوم القرآن : السيوطي ، ١٣٨/٢ ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ط/٤ ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م . والنبأ العظيم : د. محمد عبدالله دراز ، ٢١٠ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٠م ، والتناسب البياني : ٥٦ وما بعدها .

(٣) انظر : النقد الأدبي الحديث : د. محمد غنيمي هلال ، ٣٩٤ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣م ، والنقد الأدبي بين القدامى والمحدثين : د. العربي حسن درويش ، ٣٩٨ ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، (د.ت) .

المصحف . فقد اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته أن يتنزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ منجما مفرقا حسب الوقائع والأحداث والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاما .

«منها: ثلاث عشرة سنة بمكة على الرأي الراجح ، وعشر بالمدينة ، وجاء التصريح بنزوله مفرقا في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ١٠٦) أي: جعلنا نزوله مفرقا كي تقرأه على الناس على مهل ومكث، ونزلناه تنزيلا بحسب الوقائع والأحداث»^(١) .

وهذا هو الغالب على نزول سور القرآن .

ومنها: ما نزل جمعا كبعض السور القصار وبعض السور الطوال^(٢) .
وإذا كان أكثر القرآن قد نزل منجما فكيف يكون هذا الائتلاف والتناسق

المعجز بين آياته في سورة الكريمة ؟

والإجابة عن ذلك أن الرسول ﷺ كان يأمر بتوقيف جبريل إياه أن يضعوا آية كذا في موضع كذا حتى كان هذا التلاؤم التام ، والبناء المعجز في ترتيب آي الذكر الحكيم . فترتيب الآيات توقيفي .

حكى العلماء الإجماع عليه . يقول الزركشي: «وأما ما يتعلق بترتيبه، فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه»^(٣) .

(١) مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ، ١٠٦ ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١٧ هـ .

١٩٩٦م، وانظر في حكمة نزول القرآن منجما : المرجع نفسه : ١٠٧ - ١١٨ .

(٢) انظر : الإتيان في علوم القرآن : ٤٩/١ ، ٥٠ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ٢٥٦/١ .

ويقول السيوطي: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك...»^(١).

ومن النصوص التي تثبت ذلك «ما أخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره، ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل - عليه السلام - فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة؟ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ...»^(٢).

هذا وإذا كان ترتيب الآيات في السور توقيفي كما أشرنا فإن معرفة المناسبات والربط بين الآيات في السورة «ليس أمرا توقيفيا، ولكنها تعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد ، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى ، منسجمة مع السياق ، متفقة مع الأصول اللغوية في علوم العربية ، كانت مقبولة لطيفة...»^(٣).

هذا ولقد لفتت هذه الخاصية البلاغية القرآنية أنظار بعض علماء الإعجاز من القدماء والمحدثين فتحدثوا عنها واجتهدوا في بحثها وتذوقها، وفيما يأتي دراسة لجهود القدماء منهم ، مستعينا بالله تعالى.

(١) الإتيان في علوم القرآن : ٨٠/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ٢١٨/٤ ، نشر دار التربية ، الرياض .

(٣) مباحث في علوم القرآن : ٩٧ .

المبحث الأول: وحدة السورة عند البلاقاني (ت ٤٠٣)

إذا كان جمهور المفسرين القدماء لم يهتموا بوحدة السورة أو تناسب أجزائها ولطائف نظمها وترتيبها كما يرى الفخر الرازي كما سيأتي فإن لفكرة الوحدة وما تستلزمه من نظرة كلية للنص وبلاغته جذورا في تراثنا البلاغي والنقدي، نجد ذلك عند بعض القدماء كابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) الذي تنبه إلى فكرة الوحدة في القصيدة^(١)، والحاتمي (ت ٣٨٨هـ) الذي نبه إلى أن القصيدة بنية عضوية تتلاحم أجزاءها حتى كأنها بيت واحد أو فكرة واحدة^(٢)، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي يشير إلى الوحدة العضوية وقوة ارتباط أبيات القصيدة في قوله: «... ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعب تفرد عن الأتراب، فيظهر فيها ذل الاغتراب، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين، وأملاً بالزین، منها إذا أفردت عن النظائر، وبدت فذة للنظر»^(٣).

وعلى الرغم من معرفة القدماء لفكرة الوحدة العضوية والموضوعية فإن جمهورهم لم يتخذوا منها مبدءا بلاغيا نقديا يلتزمونه في تحليل بلاغة النص،

(١) انظر: عيار الشعر: العلوي، تح: عباس عبدالستار ١٢٩، ١٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢) انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، ١١٧/٢، دار الجليل، بيروت، ط/٤، ١٩٧٢م.

(٣) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، ٢٠٦، مطبعة المدني، ط/١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، وانظر: الأصول التراثية في نقد الشعر المعاصر، د. عدنان حسين قاسم، ٢١٩ وما بعدها، ليبيا، ط/١، ١٩٨١م.

فغلبت النظرة الجزئية على بلاغتنا القديمة، وسيطرت المعالجات الجزئية لبلاغة النص وجمالياته، ولذلك أسباب منها اعتقادهم «أن كل بيت في القصيدة وحدة مستقلة، وهذه الوحدة هي أساس البلاغة والجمال الفني، وبذلك لم توجد في محيط الشعراء ولا في محيط البلاغيين نظرة شاملة عامة للقصيدة بل ظلت نظراتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات...»^(١).

بيد أن بعض علماء الإعجاز القدماء لم يغفلوا النظرة الكلية العامة للنص القرآني، يتضح ذلك من خلال حديثهم عن وحدة السورة القرآنية، ومن أوائلهم أبو بكر الباقلاني الذي يأتي حديثه عن وحدة السورة في سياق نظرة كلية لإعجاز القرآن وبلاغة البيان تتجاوز النظرة الجزئية إلى العناية بالوحدة الكلية للبيان، واعتبار «الوحدة الفنية التي تتضمن موضوعا واحدا، ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورا بتمامها، يتدرج فيها، ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم لا تقتصر على مجرد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يرد في آية أو عبارة قصيرة، وإنما إعجازه منصب عليه جملة لا تفصيلا، فالسورة لا الآية أصغر وحدة فنية موضوعية في القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم، أو بالبلاغة وروعة البيان، لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السليمة...»^(٢).

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٣٧٦ .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي : د. محمد زغلول سلام ، ٢٨٦ ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط١/١٩٨٢م ، وانظر : إعجاز القرآن ، ٢٨٦ ، وقوله : " فالسورة لا الآية ... " قول للمعتزلة ، حكاه عنهم الباقلاني ، والصحيح رأي الجمهور وهو أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة أو ما كان بقدرها من الآيات ، واختلفوا فيما دون ذلك. انظر : إعجاز القرآن ، ٢٥٤ ، ٢٨٦ ، وتفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، تح : سامي بن محمد السلامة ، =

ولذلك يرد نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من صور البديع ووجوه البلاغة التي أحصاها بعض من سبقه كالرمانى (ت ٣٨٦هـ) مع إقراره بقيمتها في سياقها، لأنها صور جزئية يمكن التوصل إليها بالتدريب والتصنع لها، فليس فيها ما يخرق العادة ويخرج عن العرف^(١).

ويربط الباقلائي الإعجاز بالنظم وتأليف الكلام تأليفاً «تساق فيه الأجزاء تناسقا لا يبقى منه للجزء من القيمة الفنية إلا بمقدار ما يحقق في الكل من توضيح الصورة وإبرازها في أحسن معرض...»^(٢).

ويرى أن «الحديث التام لا تحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة»^(٣).

ويتناول وحدة السورة واتحاد أجزائها والترابط بين آياتها في بعض فصول كتابه " إعجاز القرآن". ففي الفصل الأول الذي عقده لبيان «أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن» يتحدث عن اتحاد أجزاء السورة في سياق الاستدلال على إعجاز القرآن، فيقول في السور المفتحة بالحروف المقطعة: «كثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته»^(٤)، ثم يطبق ذلك على سورتى "غافر وفصلت"

= ٢٠٥/١، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط/١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، والإتقان في

علوم القرآن: ١٥٦/٢، ١٥٧، ومباحث في علوم القرآن: ٢٧١.

(١) انظر: إعجاز القرآن: ١٠٧، ١١١، ١١٢.

(٢) الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن: د. عبدالرؤوف مخلوف، ٣٠٠، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.

(٣) إعجاز القرآن: ٢٥٤، وانظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٥٦/٢، ١٥٧.

(٤) المصدر السابق: ٩.

فيحللها تحليلًا مجملًا يوضح وحدتهما الفنية والترابط بين آياتهما، ومما قال: «فمن ذلك سورة المؤمن، قوله عز وجل: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢﴾ غافر: ٢ .

ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٣﴾ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ۝٤﴾ (سورة غافر: ٣ - ٤)، فدل على أن الجدال في تنزيهه كفر والحاد...»^(١)، ويسترسل في بيان بعض محاسن النظم في السورتين الكريميتين والتدرج وسهولة الانتقال من غرض إلى غرض، ومن معنى إلى معنى ودقة الربط والتناسب بين المعاني والألفاظ من مطلع كل سورة إلى خاتمتها^(٢)، ويعد ذلك الترابط والتناسق بين آيات السورة نوعًا من النظم، يقول: «والذي ذكرناه من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السور»^(٣)، ويعد من أوائل من ربط النظم بهذا المعنى أعني «التناسق والترابط بين أجزاء القطعة الفنية الواحدة...»^(٤).

وفي سياق حديثه في الفصل الثالث عن "وجوه إعجاز القرآن" عد النظم أحد هذه الوجوه، يقول: «والوجه الثالث أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه»^(٥)، وحاول شرح هذا الوجه فذكر جملة من الخصائص التي انفرد بها النظم القرآني، منها قوة

(١) المصدر السابق: ٩ ، ١٠ .

(٢) انظر: المصدر السابق ، ١٠ ، ١١ ، ١٩٧ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق: ١٤ .

(٤) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن: ٤٣٨ .

(٥) إعجاز القرآن: ٣٥ .

الارتباط والانتلاف والتناسب والتناسق بين الآيات^(١)، ويشير إلى أن كلام الفصحاء من البشر «يتفاوت تفاوتاً بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتباعد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم... والقرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف»^(٢)، ويفصل هذا الإجمال في فصل عقده لبيان «أن نظم القرآن يفوق كل نظم وقول» فيعرض بعض الآيات المفردة ويحللها، موضحاً ما فيها من بديع التأليف وعظيم الرصف ومحكم الارتباط^(٣)، ثم يتجاوز هذا المستوى من التمثيل الذي اعتاد عليه الدارسون للإعجاز والبلاغة، فينتقل إلى بيان ترابط الآيات وتناسبها في إطار وحدة السورة، يقول: «أقصد إلى سورة تامة، فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها»^(٤)، ويختار سورة النمل، ويشرع في تحليلها كاشفاً عن وحدتها، يقول: «تأمل السورة التي يذكر فيها النمل، وانظر في كلمة كلمة، وفصل فصل، بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَلْأَقْرَبَ مِنَ الَّذِينَ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (سورة النمل: ٦) ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام، وأنه رأى ناراً، فقال لأهله امكثوا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ

(١) انظر: إعجاز القرآن، ٣٦، ٣٧، وانظر: التناسب البياني في القرآن: ٥٦.

(٢) إعجاز القرآن: ٣٨.

(٣) انظر: المصدر السابق، ١٨٦ - ١٨٨.

(٤) المصدر السابق: ١٨٩.

﴿أَوَاتِيكُمْ بِسَهَابٍ مَّيِّسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٧) وقال في سورة طه في هذه القصة ﴿لَعَلَّآئِيكُمْ مِّنْهَا يَفْقَهُنَّ أَوْ أَحَدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (سورة طه: ١٠).

وفي موضع ﴿لَعَلَّآئِيكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ أَوْ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (سورة القصص: ٢٩) قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك. ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ (سورة الطور: ٣٤) ليكون أبلغ في تعجيزهم، وأظهر للحجة عليهم^(١).

فيشير الباقلائي في هذا النص إلى افتتاحية السورة، وبيانها مصدر القرآن، وأنه منزل من لدن الله تعالى، وانتقالها إلى الحديث عن قصة موسى عليه السلام، ويشير إلى خاصية من خصائص أسلوب القصص القرآني وهي التصريف والتنويع في أداء المعنى الواحد والدقة في اختيار اللفظة الملائمة للسياق ودلالة ذلك على إعجازه، واكتفى الباقلائي بهذه الإشارة جرياً على منهجه الذي يغلب عليه التذوق الذاتي.

وقد أوضح الزمخشري سر هذا الاختيار القرآني بقوله: «فإن قلت» ﴿سَأْتِيكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ﴾ النمل: ٨، و﴿لَعَلَّآئِيكُمْ مِّنْهَا يَخْبَرُ﴾ القصص: ٢٩، كالمتدافعين لأن أحدها ترجح والآخر تيقن، قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاءه: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة، فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف؟ قلت عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة، فإن قلت: فلم جاء «بأو» «دون» «الواو»؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر

(١) المصدر السابق: ١٨٩.

بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعبادة الله، أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا وهما العزّان: عز الدنيا وعز الآخرة»^(١).

ويتواصل حديث الباقلاني عن وحدة السورة والترابط بين أجزائها فيقول:

«ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة النمل: ٨) فانظر إلى ما أجرى له الكلام، من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الشئ، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، وما دل به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلا يدلّه عليه، ومعجزة تهديه إليه»^(٢).

وفي هذا النص يشير إلى التناسب بين هذا الجزء من السورة ومقدمتها،

ثم يقول بعد كلامه السابق عن آية: "﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾" النمل: ٨.

"«وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة: من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء»^(٣).

وهو هنا يوظف وسيلة من الوسائل التي يقوم عليها منهجه في تحليل البيان القرآني وهي تأليف المختلف «بين الجمل المستقلة بمعناها التي تمثل كل واحدة

(١) الكشاف: الزمخشري، ٣/٣٤٩، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

(٢) إعجاز القرآن: ١٨٩، ١٩٠.

(٣) المصدر السابق: ١٩٠.

منها بمفردها وحدة بذاتها ، ثم تنتظم هذه الجملة مع بعضها البعض فتكون وحدة أعلى فيما بينها، على ما يبدو من استقلال كل واحدة منها»^(١).

ويشير إلى حسن الانتقال في السورة من غرض إلى غرض دون أن يخل ذلك ببلاغتها ودقة نظمها يقول: «متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام، بعد ذكر العنوان والتسمية ، هذه الكلمة الشريفة العالية: ﴿الْأَتَعَلُّوا عَلَيَّ وَأَتُوفِّيَ مُسْلِمِينَ﴾ (سورة النمل: ٣١).

والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير، واشتغلت به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها، بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك...»^(٢)، ويشير إلى مظهر آخر من مظاهر التلاحم البياني في بعض آيات السورة الكريمة كآية ﴿قَالُوا مَن أَوْلَاؤُكُمْ أَذُنًا غُفُورًا وَأُولُوا بِأَيْسِّ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكُمْ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (سورة النمل: ٣٣) وما فيها من تمكن الفاصلة ووقوعها في موقعها المناسب وملاءمتها لما قبلها^(٣)، ويجمل القول في وحدة السورة وتناسب أجزائها وآياتها، فيقول: «ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من بديع النظم وعجيب الرصف، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها ... ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصوّر لك الفصل وصلا، ببديع التأليف، وبلغ التنزيل»^(٤).

(١) مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز : عبدالله عبدالرحمن بانقيب ، ٢٨٤ .

(٢) إعجاز القرآن : ١٩١ .

(٣) انظر : المصدر السابق : ١٩١ ، ١٩٢ .

(٤) المصدر السابق : ١٩٠ .

هذا وعلى الرغم مما ذكره الباقلاني في سياق تحليله لسورة النمل وبيان الوحدة فيها لا يتناول آياتها كلها بل يكتفي ببعضها لذلك يعتذر عن ذلك ، خشية الإطالة على قارئه^(١)، ثم يؤكد أن هذه السمة البيانية ليست خاصة بسورة دون أخرى بل تشمل سور القرآن جميعها، ويدعو إلى إجمالة الرأي «في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وإلى تدبر الخواتم والفواتح، والبوادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول»^(٢)، ويستشهد لذلك بنماذج من سور أخرى كالشعراء وغافر والإسراء، مشيراً إلى ما فيها من نظم بديع وتناسب عجيب وتناسق معجز^(٣).

وبعد فذلك مجمل حديث الباقلاني عن وحدة السورة القرآنية ويتلخص في أنه أوضح مفهومها وطبقها على بعض سور من القرآن الكريم ، مشيراً إلى مظاهر الوحدة والتناسب فيها وبذلك استطاع كما يقول بعض الباحثين «أن يمس إحدى الخصائص التي يتميز بها الكلام الجيد وأعني بذلك الوحدة العضوية كما يسميها النقاد، بين أجزاء السورة حتى تظهر وكأنها خلق متكامل، يمسك بعضه برقاب بعض»^(٤).

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن «إدراك سمة الوحدة من الإنجازات الطيبة التي تحسب للباقلاني، بعد أن سيطرت المعالجات الجزئية على العمل الفني، من

(١) انظر : المصدر السابق : ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٩٣ .

(٣) انظر : إعجاز القرآن ، ١٩٥ وما بعدها ، ١٩٧ وما بعدها ، ٢٠٩ وما بعدها .

(٤) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن : ٤٣٧ .

وَحْدَةُ السُّورَةِ الْقُرْآنِيَّةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْإِعْجَازِ الْقَدَمَاءِ - د. يحيى بن محمد عطف

جراء المنهج اللغوي، فظهر البيت الشاهد، أو العبارة الشاهد، أو الآية القرآنية التي تثبت قاعدة أو تنفي قاعدة، وضاعت النظرة الكلية إلى العمل الفني فافتقد أخص مقوماته وأهم مميزاته»^(١).

(١) مناهج في تحليل النظم القرآني: د. منير سلطان، ٧٥، منشأة المعارف، الإسكندرية (د.ت).

المبحث الثاني: وحدة السورة عند عبد القاهر (ت ٤٧١هـ)

أشار عبد القاهر الجرجاني في سياق شرح نظريته للنظم إلى فكرة الوحدة التي تعد ثمرة من ثمرات عناية علماء الإعجاز بقضية الإعجاز النظمي في القرآن الكريم، وإذا كان حديث الباقلاني عن وحدة السورة جاء في سياق نظرة كلية لإعجاز القرآن وبلاغة البيان تتجاوز النظرة الجزئية كما أسلفت، فإن عبد القاهر يرسخ هذه النظرة الكلية الشاملة في مواطن متعددة، مؤكداً من خلالها فكرة وحدة النظم أو الوحدة الفنية في تحليلاته وتطبيقاته لبعض نماذجه أو شواهده وأمثله من القرآن والشعر، فقد تنبه إلى معنى الوحدة العضوية وقوة ارتباط أبيات القصيدة بعضها ببعض، والعلاقات والروابط المتينة بينها في قول الشاعر:

دمن كأن رياضها يكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانها فيها عُشور من مصاحف
وكأنما أنوارها تهتز في نكباء
طُررُ الوصائف يلتقين بها إلى طرر الوصائف
وكأن لمع بروقها في الجو أسياف

يقول عبد القاهر: «المقصود البيت الأخير، ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب، فينظر فيها ذل الاغتراب، والجوهرة

الشمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين، وأملاً بالزين، إذا أفردت عن النظائر، وبدت فذة للناظر»^(١).

ويظهر فهمه الدقيق للوحدة الفنية في تحليله للصورة التشبيهية المركبة في آية يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَ مِنْ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِ رُؤُوا عَلَيْهَا آتِنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ (سورة يونس: ٢٤)، فيقول عبدالقاهر: «... ألا ترى ... كيف كثرت الجمل فيه؟ حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها، واحدة واحدة، ثم إن الشبه متفرع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر، حتى إنك لو حذف منها جملة واحدة من أي موضع كان، أخل ذلك بالمعنى من التشبيه...»^(٢).

ومن تلك المواطن التي تظهر فيها رؤية عبد القاهر الكلية التي تنظر إلى البيان وحدة متكاملة تتأزر عناصره وتتكامل قوله في سياق حديثه عن المستوى الثالث من مستويات النظم الذي سماه «النمط العالي والباب الأعظم» المعنى بالاتحاد والترابط البياني الكلي الذي «تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعا واحدا...»^(٣) والذي لا يقتصر

(١) أسرار البلاغة: ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق: ١٠٩.

(٣) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، ٩٥، مطبعة المدني، القاهرة، ط/٢، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

على عطف جملة على جملة وإنما يعمد «إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضها على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك»^(١)، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ (سورة القصص: ٤٤، ٤٥)، فعطفت جملة " وما كنت ثاويًا في أهل مدين " وما حوته من جمل على جملة " وما كنت بجانب الغربي " وما اشتملت عليه من جمل؛ لأنك «لو جريت على الظاهر فجعلت كل جملة معطوفة على ما يليها ، منع منه المعنى وذلك أنه يلزم منه أن يكون قوله : " وما كنت ثاويًا في أهل مدين " معطوفا على قوله : "فتطاول عليهم العمر" ، وذلك يقتضي دخوله في معنى " لكن " ، وبصير كأنه قيل: " ولكنك ما كنت ثاويًا " ، وذلك ما لا يخفى فساده .

وإذا كان كذلك ، بان منه أنه ينبغي أن يكون قد عطف مجموع " وما كنت ثاويًا في أهل مدين " إلى "مرسلين " ، على مجموع قوله : " وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر" إلى قوله : " العمر»^(٢) . ولا تقف عناية صاحب الدلائل بالنظرة الشاملة لبلاغة النص وما تستلزمه من وحدة عناصره وتآزرها عند الآيات المفردة كما سبق ، وإنما تمتد نظرتة إلى سورة كاملة هي سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

(١) المصدر السابق: ٢٤٥ .

(٢) المصدر السابق: ٢٤٧ .

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ فيقوم بتحليلها بلاغيًا بإيجاز مشيرًا إلى وحدتها الفنية ممثلة في ترابط معانيها النحوية ومواقعها في هذه السورة الكريمة .

يقول: «وجملة الأمر، أن النظم إنما هو أن "الحمد" من قوله تعالى: " الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم " مبتدأ، و " الله " من خبره، و "رب" صفة لاسم الله تعالى ومضاف إلى " العالمين " و "العالمين " مضاف إليه، و "الرحمن الرحيم " صفتان كالرب، و " مالك " من قوله: " مالك يوم الدين " صفة أيضا، ومضاف إلى يوم، و "يوم" مضاف إلى "الدين" و "إياك " ضمير اسم الله تعالى، وهو ضمير يقع موقع الاسم إذا كان الاسم منصوبا، معنى ذلك أنك لو ذكرت اسم الله مكانه لقلت: " الله نعبد "، ثم إن " نعبد " هو المقتضي معنى النصب فيه، وكذلك حكم " إياك نستعين "، ثم إن جملة " إياك نستعين " معطوف بالواو على جملة " إياك نعبد "، و "الصراط" مفعول ، و "المستقيم " صفة للصراط " و " صراط الذين " بدل من "الصراط المستقيم " ، و "أنعمت عليهم " صلة الذين ، " وغير المغضوب عليهم " صفة "الذين" ، و"الضالين " معطوف على " المغضوب عليهم"....»^(١).

ففي هذا التحليل بيان لوحدة النظم أو الوحدة الفنية بين علاقات الكلام النحوية فيها أو معاني النحو كما يسميها، بيد أن تحليله للسورة وقف عند

(١) المصدر السابق : ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

تحديد مواقعها دون أن يكشف عن أسرارها البلاغية، ولعله وقف عند ذلك اعتماداً على قارئه وذوقه البلاغي، واستشارة له؛ ليتفاعل مع جمال النص، ويسهم في تذوقه واستكشاف أسرار بلاغته.

المبحث الثالث: وحدة السورة عند الزمخشري (٥٣٨هـ)

يتفق الزمخشري مع من سبقه من علماء الإعجاز ممن أشرت إليهم فيما قبل في عنايته بالرؤية الكلية التي تنظر إلى النص بوصفه وحدة متكاملة تتأزر عناصرها ويكمل بعضها بعضا، فييسط القول فيما سماه عبد القاهر من النظم " النمط العالى... " في مواضع متعددة من الكشاف فيعد من «أمارات التفوق في الأسلوب أن يكون الكلام متماسكا أشد التماسك مرتبطا قويا ارتباطا كأنه بناء متين يشد بعضه بعضا»^(١).

يقول في آيات النمل: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة النمل: ٨٧ - ٩٠] -.

يقول الزمخشري: "صنع الله" من المصادر المؤكدة كقوله: "وعد الله"، و"صبغة الله" إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب لـ "يوم ينفخ". والمعنى ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أتاب الله المحسنين وعاقب المجرمين، ثم قال: "صنع الله" يريد الإثابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة.

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: د. محمد أبو موسى ، ٤٦٦ ، دار التضامن ، القاهرة،

والصواب حيث قال: "صنع الله الذي أتقن كل شيء" يعني أن مقابلة الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من جملة أحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة، إنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك، ثم لخص ذلك بقوله: "من جاء بالحسنة" إلى آخر الآيتين، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه، وترتيبه، ومكانة إضماره ورسالة تفسيره، وأخذ بعضه بحجزه بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحداً، ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشفاشق، ونحو هذا المصدر "صنع الله..." إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته، والمنادى على سداده، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان، ألا ترى إلى قوله: "صنع الله"، و"صبغة الله"، و"وعد الله"، و"قوة الله"، بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمه التعظيم - كيف تلاها بقوله: ﴿الَّذِي أَنْقَرَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ حَيْرٌ لِّمَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٨٨)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (سورة البقرة: ١٣٨)، ﴿لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِيْعَادَ﴾ (سورة الزمر: ٢٠)، ﴿لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(١) (سورة الروم: ٣٠)، ولا يقف صاحب الكشاف في نظره الكلية للبيان القرآني عند وحدة الآيات المفردة وترابطها وإنما تتسع دائرة نظره لتشمل كل سور القرآن فيتفق مع من سبقه من علماء الإعجاز الذين أشرت إليهم آنفاً في تأكيد وحدة السورة القرآنية، يفهم ذلك مما قاله في سياق تفسيره لآية البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣).

(١) الكشاف: ٣/٣٠٤، ٣٠٥.

قال: " فإن قلت : ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سورا ؟ قلت .. ومن فوائده ... أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني، ويتجاوب النظم...»^(١).

ويذكر صاحب الكشاف بعض مظاهر وحدة السورة بمناسبة فواتح السور لخواتمها، يقول: «جعل (الله) فاتحة السورة "قد أفلح المؤمنون"، وأورد في خاتمتها "إنه لا يفلح الكافرون" ...»^(٢)، وكحسن الخروج من معنى إلى معنى ومن موضوع إلى موضوع^(٣)، وإذا كان الزمخشري في الكشاف - «لم يسلك كما يقول - أستاذنا درويش الجندي - رحمه الله - الطريق العملي التطبيقي كالبلافلاني لبيان الوحدة مكتفياً بتفسير هذه الآية بما يفيد ذلك المعنى»^(٤)، فإنه حاول تطبيق ذلك في رسالته الموجزة التي أفردتها للحديث عن الإعجاز في سورة الكوثر، وهي جواب عن رسالة أرسلها أحد معاصريه تضمنت عدة أسئلة وإشكالات حول إعجاز القرآن سائلاً صاحبها الإجابة عنها، منها أن المتكلمين في الإعجاز على الرغم من جهودهم الكبيرة «لم يبلغنا عن واحد منهم أنه شمر ذيله وادّرع ليله في بيان وجه الإعجاز على التفصيل سورة فسورة وآية فآية ... مع شدة الحاجة إلى ذلك في كل زمان، إذ حجة الله تعالى قائمة، ومعجزته على وجه الدهر باقية»^(٥).

(١) المصدر السابق: ٢٣٨/٣، وانظر: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، د. درويش الجندي،

٢٢١، دار تحفة مصر للطبع والنشر، ١٩٦٩ م.

(٢) الكشاف: ٥٨/٣.

(٣) انظر: الكشاف ٣٧١/٣، وانظر: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، ٢٣٠.

(٤) النظم القرآني في كشاف الزمخشري: ٢١١، ٢١٢.

(٥) إعجاز سورة الكوثر: جار الله الزمخشري، تح: حامد الخفاف، ٣٣، ٣٤، دار البلاغة، =

فتصدى الزمخشري للجواب عنها بعد أن «كرر (السائل) الطلب وردد ، وألح فيه وشدد»^(١) بدأها بمقدمة في إعجاز القرآن تتضمن الإجابة عن أسئلة تتعلق بفضل لغة العرب على سائر اللغات^(٢).

وبيان خصائصها ودقائقها وأسرار بلاغتها^(٣)، وإعجاز القرآن وعجز العرب عن معارضته والإتيان بسورة من مثله^(٤)، ثم ضرب سورة الكوثر - وهي أقصر السور - مثالا لإعجاز القرآن، وقام بتحليلها بلاغيا محاولا الكشف عن وحدتها ووجه الإعجاز فيها .

فأشار في صدر تحليله إلى سبب نزولها وإعجازها إجمالا فقال: «ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن عدو الله العاص بن وائل ما يهدم مقاله ويهزم محاله ، وينفس عن رسوله، وينيله نهاية سؤله، فأوحى إليه سورة على صفة إيجاز واختصار، وذلك ثلاث آيات قصار، جمع فيها ما لم يكن ليجتمع لأحد من فرسان الكلام...»^(٥).

ثم ذكر الغرض منها ومعانيها «انظر إلى العليم الحكيم كيف حذا ثلاث الآيات على عدد المُسليّات، من إجلال محل رسول الله وإعلاء كعبه، وإعطائه أقصى ما يؤمل عند ربه، ومن الإيعاز إليه أن يقبل على شأنه من أداء العبادة

= بيروت، ط/١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(١) المصدر السابق : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) المصدر السابق : ٣٩ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق: ٤٢ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق: ٤٨ وما بعدها .

(٥) المصدر السابق : ٥٤ ، ٥٥ .

بالإخلاص، وأن لا يحفل بما ورد عليه من ناحية العاص، ولا يحدد عن التفويض إليه محيدا، ومن الغضب له بما فيه مسلاته من الكرب، من إصاق عار البتر بالكلب، والإشعار بأن كان عدو الله بوراً، ولم يكن إلا هو صنهوراً^(١).

ثم أشار إلى نظم معاني السورة وترتيبها وترابطها ووحدتها: «ثم انظر كيف نظمت النظم الأنيق، ورتبت الترتيب الرشيق، حيث قُدم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها، وما يقطع الشبهة ويقلعها، ثم لما يجب أن يكون عنه مسبباً، وعليه مترتباً، ثم ما هو تنمة الغرض من وقوع العدو في مُغَوَّاتِهِ التي حفر، وصلبه بحر ناره التي سحر، ومن الشهادة على إصاقه بالسليم عيبه، وتوريكه على البريء ذنبه»^(٢).

ثم شرع يفصل أسرار نظمها ومظاهر تناسبها ومحاسنها فاستخرج من آيتها الأولى ثماني فوائد^(٣)، ومن آيتها الثانية ثماني فوائد^(٤)، ومن آيتها الثالثة خمس فوائد^(٥)، ثم يختم تحليله لهذه السورة الكريمة بالإشارة إلى مظهر آخر من مظاهر وحدتها وهو التناسب بين فاتحتها وخاتمتها، يقول: «... وذلك كله مع علو مطلعها، وتمام مقطعها، ومجاوبة عجزها لهاديتها، وسببها لناصيتها، (و) مجيئها مع (ذلك) خالية من تصنع ... وتعمل ... ولا يلقاك ذلك إلا في كلام رب العالمين ...»^(٦).

(١) المصدر السابق : ٥٥ .

(٢) المصدر السابق : ٥٦ .

(٣) المصدر السابق : ٥٧ .

(٤) المصدر السابق : ٥٧ - ٥٩ .

(٥) المصدر السابق : ٥٩ ، ٦٠ .

(٦) المصدر السابق : ٦٠ .

المبحث الرابع: وحدة السورة عند الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)

ومن علماء الإعجاز القدماء الذين تحدثوا عن وحدة السورة فخر الدين الرازي الذي يعد من أكثر المفسرين اهتماماً بوحدة السورة وذكر المناسبات بين آياتها وتربط أجزاءها ، وتفسيره الكبير يزخر بالبحث في لطائف التناسب ودقائقه، يقول: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»^(١). ويشير إلى إعراض جمهور المفسرين عن هذه اللطائف، ويعد تناسب الآيات ودقائق نظمها وجهها من وجوه الإعجاز .

يقول في سياق تفسير سورة البقرة : «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك؛ إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأمور وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل: والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر»^(٢). ويعنى في تفسيره بوحدة السورة الموضوعية أو المحورية ودورانها حول غرض عام أو موضوع واحد ، ويعد أول من صرح بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية^(٣)،

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣٦/١ . وانظر : التناسب البياني في القرآن ، ٥٧ .

(٢) التفسير الكبير : ١١٢/٧ .

(٣) انظر: منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. زياد خليل الدغامين، ٩٨، دار البشير، عمان، ط/١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، والتفسير الموضوعي - التأصيل والتمثيل، د. زيد عمر العيص، ١١٩، مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

ذكر ذلك في سياق تفسيره سورة "فصلت" وربطه بين آياتها ومقاطعها، فقد عد آية ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا مَّجْمُوعًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَجْمَعِيًّا وَعَرَفِيًّا قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (سورة فصلت: ٤٤)، عدها متعلقة بقوله تعالى في مطلع السورة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ...﴾ (سورة فصلت: ٥) "قال: «وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرنا صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاما منتظما مسوقا نحو غرض واحد»^(١).

وقد حكى وجهها في تفسير آية "ولو جعلناه... فذكر أنهم نقلوا في تفسيرها" أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية»، ويرد هذا الوجه لأنه لا ينسجم مع السياق والنظم، فيقول: «وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن؛ لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق لبعض فيها ببعض، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن، فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابا منتظما، فضلا عن ادعاء كونه معجزا؟ بل الحق عندي أن السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ (سورة فصلت: ٥).

(١) التفسير الكبير: ١١٦/٢٧.

وهذا الكلام أيضا متعلق به، وجواب له، والتقدير: أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب، ويصح لهم أن يقولوا: "قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه" أي: من هذا الكلام، "وفي آذاننا وقر" منه لأننا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه.

أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها، وفي آذانكم وقر منها، فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جوابا عن ذلك الكلام، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم، وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جدا^(١).

فواضح أنه يفسر الآية السابقة من خلال نظرة عامة شاملة تقوم على وحدة السياق في السورة ووحدة موضوعها، وأن ما رده مما قيل في تفسيرها لا ينسجم والوحدة الموضوعية للسورة، ويحاول تطبيق ذلك بربط أجزاء السورة " فصلت " بموضوعها وغرضها العام، وهو: «الاهتمام بالكتاب المنزل والرد على مواقف المعارضين عنه»^(٢)، وقبل أن أورد نماذج من تطبيقاته أود أن أشير إلى مقاطع السورة وأقسامها، فيمكن تقسيم السورة التي بلغت آياتها أربعاً وخمسين آية ثلاثة أقسام وخاتمة:

القسم الأول من الآية (١ - ٢٩) إشادة بالقرآن الكريم وبيان موقف المعارضين منه، ورد عليهم وإنذارهم بالعذاب في الدنيا والآخرة.

(١) المصدر السابق: ١١٥/٢٧.

(٢) سورة فصلت. دراسة بيانية، محمد صالح العلياني، ١١١.

القسم الثاني من الآية (٣٠ - ٣٩) وفيه حديث عن المؤمنين المصدقين الذين تلقوا القرآن بالقبول، وفيه تسليية للرسول ﷺ في إعراض قومه، وفيه حديث عن الدعوة والدعاة إلى الله.

القسم الثالث من الآية (٤٠ - ٤٦) وفيه عودة إلى الإشادة بالقرآن، وتهديد لمن يلحد في آياته، ورد آخر على المعارضين عنه على سبيل الفرض والتقدير، ويختم بتسليته للرسول ﷺ في إعراض قومه عن القرآن.

الخاتمة من الآية (٤٧-٥٤) وتأتي ملتحمة بأجزاء السورة، ففيها حديث عن الساعة وموقف المشركين في يوم القيامة وقد تبرءوا من الشرك والإعراض الذي ورد في أول السورة، وحديث عن القرآن^(١).

- ومن حديثه عن الوحدة في السورة الكريمة ربطه بين القسم الأول والثاني منها . ففي سياق تفسير آيات الدعوة الواردة في القسم الثاني ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا...﴾ (٣٠ - ٣٦) يقول مبينا صلتها بآيات الإعراض الواردة في القسم الأول: «واعلم أن الكلام من أول السورة ابتداءً من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا: " قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه " فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة، وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ، ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه، وذكر الوجوه الكثيرة، وأردفها بالوعد والوعيد، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ...﴾ (٢٦)، وأجاب عنها أيضا بالوجوه الكثيرة، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمدا ﷺ في أن لا يترك الدعوة إلى الله،

(١) انظر: المرجع السابق: ١١٤، ١١٥ .

فابتدأ أولاً بأن قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ (٣٠) فلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعا على أحسن وجوه الترتيب، ثم كأن سائلا سأل فقال إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعا لهذا الإشكال، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ (٣٤).

والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق ... والمراد بالسيئة ما أظهره من الجلافة في قولهم "قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه"، وما ذكره في قولهم "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه"... ولما ذكر الطريق الكامل في دفع الغضب والانتقام وفي ترك الخصومة، ذكر عقبيه طريقا آخر عظيم النفع أيضا في هذا الباب، فقال: ﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١)، (٣٦).

- ويربط آيات الدعوة بالآيات الثلاث بعدها (٣٧ - ٣٩) فيقول: «اعلم أن الله تعالى لما بين أن في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، تنبيها على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن...»^(٢).

(١) التفسير الكبير: ١٠٩/٢٧، ١١٠.

(٢) المصدر السابق: ١١١/٢٧.

- وإذا انتقلنا مع الرازي إلى خاتمة السورة نجده يربطها بمطلعها . ففي سياق تفسيره لآية ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (٤٧) وهي أول آيات الخاتمة، يقول: ((إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة ، وهذا الذي ذكره شديد التعلق أيضا بما وقع الابتداء به في أول السورة، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمدا كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة من الأصنام والأوثان بدليل أنه قال في أول السورة : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ (٦) فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد ، فقال ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آتِنَا سُورَكَايَ﴾ (٤٧)^(١).

وبعد فتلك نماذج من حديث الفخر الرازي عن الوحدة في إحدى سور القرآن وترابط أجزائها.

ولا يتضح جهده وتطبيقه لهذه الخاصية البلاغية إلا بالوقوف عليه كاملا في تفسيره الكبير . هذا وقد اطلع الإمام الرازي على رسالة العلامة الزمخشري " الإعجاز في سورة الكوثر " التي أشرت إليها فيما قبل، فلخصها في خاتمة كتابه " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " بما لا يخرج عما ذكره صاحبها^(٢).

(١) المصدر السابق : ١١٧/٢٧ ، ١١٨ .

(٢) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي ، تح : د. بكري شيخ أمين ، ٣٧٥ - ٣٨٠ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط/١ ، ١٩٨٥ م .

المبحث الخامس: وحدة السورة وصلتها بعلم المناسبة عند الزركشي والبقاعي والسيوطي:

وقد عني المتأخرون ممن ألفوا في علوم القرآن كعلم المناسبة واهتموا بقضية الإعجاز ففتحوا لها فصولا في دراساتهم القرآنية - عنوا بقضية وحدة السورة وعدوها فرعا من علم المناسبة .

وهو أحد علوم القرآن عندهم، ويهتم بعلم الترتيب بين الآيات والصور القرآنية وبوجه «الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة»^(١).

وفائدة هذا العلم كما يقول الزركشي (ت ٧٩٤هـ): «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، وبصير التأليف حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»^(٢).

ويقول عنه البقاعي (ت ٨٨٥هـ): «فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها...»^(٣).

(١) مباحث في علوم القرآن : ٩٦ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٣٦/١ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٥/١ .

وواضح مما مضى أن المناسبات في القرآن التي يعنى بها هذا العلم يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول مناسبات تتصل بالسور بمناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، والثاني مناسبات تتصل بالآيات في السورة الواحدة، وتشمل مناسبة الآيات الواردة في مطلع السورة للغرض العام للسورة، ومناسبة افتتاحية السورة لخاتمتها، وترتيب الآيات في السورة الواحدة وبيان مدى ما بينها من ترابط وتناسق وانسجام.

وهذا القسم الثاني يمثل ما يعرف حديثا بوحدة السورة ، ففيه تتجسد فكرة وحدة السورة القرآنية، ومن خلال ما مضى تتضح صلة علم المناسبة بوحدة السورة القرآنية وما بينهما من عموم وخصوص.

ومن أشهر من أفرد علم المناسبة بالتأليف أبو جعفر بن الزبير (ت ٨٠٧هـ) في كتابه "البرهان في ترتيب سور القرآن"^(١).

وعقد الزركشي لعلم المناسبة فصلا في كتابه " البرهان في علوم القرآن " تحدث فيه عن هذا العلم^(٢)، ثم ذكر من مظاهر وحدة السورة القرآنية المناسبة بين فواتح السور وخواتمها، واستشهد بسورة القصص، يقول: «تأمل سورة القصص وبيدائها بقصة مبدأ أمر موسى ونصرته.

وقوله: ﴿فَلَنَ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (١٧)، وخروجه من وطنه ونصرته وإسعافه بالمكالمة ، وختمها بأمر النبي ﷺ بالألا يكون ظهيرا للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾

(١) تح : محمد شعباني ، المملكة المغربية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مطبعة فضالة ، ط/١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

(٢) البرهان في علم القرآن : ٣٦/١ وما بعدها .

(٨٥) ، وحكى عن الزمخشري قوله " وقد جعل الله فاتحة سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) وأورد في خاتمتها ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧)"، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»^(١).

وألف فيه البقاعي كتابه " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور " وهو: أشهر كتاب في هذا العلم، أشار في مقدمته إلى أهمية علم المناسبة وثمرته، وأن به «يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب.

والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب...»^(٢)، واهتم فيه بالإشارة إلى المقصود من كل سورة، أو الغرض العام الذي يمثل الروح الساري بين أجزاء السورة، والذي يتمثل في تناسب الأجزاء وترابطها ، كذلك بين فيه مناسبة هذا المقصود لاسم السورة، وينظر كذلك إلى تطابق المقدمة مع الخاتمة وجمال تناسبهما^(٣).

وذكر القاعدة العامة التي جرى عليها في بيان المناسبات بين الآيات في السورة، فقال: «قال شيخنا أبو الفضل محمد ابن محمد المشدالي المغربي (ت ٨٦٥هـ) الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقته له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع

(١) المصدر السابق : ١٨٥/١ ، ١٨٦ .

(٢) نظم الدرر : ٧/١ .

(٣) انظر : نظم الدرر : ١٢/١ .

عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك - إن شاء الله تعالى - وجه النظم مفصلاً بين كل آية في كل سورة...»^(١)، هذا ومجمل القول فجهد الإمام البقاعي - كما يقول أحد الباحثين - «قد أكد أن الوحدة الموضوعية في السورة ليست بدعا من القول، وأنها حقيقة يسعى لتطبيقها لكن الشغرة في تفسيره من هذه الناحية، أنه لم يربط آيات السورة بموضوعها العام، بل اكتفى بذكر الصلة بين الآيات، فكانت صلوات موضوعية جزئية متفرقة»^(٢).

وعقد السيوطي (ت ٩١١هـ) في "الإتقان" فصلاً "في مناسبة الآيات والسور" أشار فيه إلى أهمية علم المناسبة ومفهومه وفائدته وأبرز من ألف فيه، صادراً في جل ذلك عن الزركشي، مضيفاً بعض الأمثلة^(٣)، ويذكر من مظاهر وحدة السورة مناسبة فواتح السور وخواتمها، مشيراً إلى أنه ألف فيه مؤلفاً لطيفاً سمّاه "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع".

وذكر بعض الشواهد صدر في جلها عن بعض السابقين كالزمخشري والزركشي^(٤) والكرماني الذي روى عنه قوله في سورة "ص": «بدأها بالذكر وختمها به في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٧)، وفي سورة "القلم" بقوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(٥) وختمها بقوله ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١)^(٥).

(١) المصدر نفسه : ١١/١ .

(٢) منهجية البحث في التفسير الموضوعي: د. زياد الدغامين، ٩٩، دار البشر، عمان، ط/١، ١٩٩٥م.

(٣) انظر: الإتقان في علم القرآن: ١٣٨/٢ وما بعدها.

(٤) انظر: المصدر السابق، ١٤٢/٢ .

(٥) المصدر السابق: ١٤٢/٢ .

الخاتمة

- وبعد فلعل فيما أسلفت ما يلقي الضوء على وحدة السورة عند علماء الإعجاز القدماء وجهودهم في دراستها، ومنه يمكن أن أسجل ما يأتي:
- (١) على الرغم من سيطرت المعالجات الجزئية للنص ومنه النص القرآني في تراثنا البلاغي والنقدي فإن بعض علماء الإعجاز لم يغفلوا النظرة الكلية لبلاغة النص من خلال حديثهم عن وحدة السورة القرآنية، واعتبار السورة طويلة كانت أو قصيرة أو ما كان بقدرها أصغر وحدة فنية موضوعية في القرآن يتعلق بها الإعجاز البلاغي النظمي .
- (٢) وفي سياق هذه النظرة الكلية لإعجاز القرآن يتحدث الباقلائي عن وحدة السورة، فيربط الإعجاز بالنظم، ويعد وحدة السورة أو الترابط والتناسب المعنوي بين آيات السورة نوعاً من الإعجاز النظمي، ويتجاوز في تطبيقاته الآيات المفردة التي اعتاد عليها الدارسون للإعجاز والبلاغة فيختار سوراً يوضح من خلال تحليلها هذه الخاصية البيانية في النظم القرآني، مشيراً إلى أن هذه السمة البلاغية ليست خاصة بسورة دون أخرى بل تشمل سور القرآن جميعها، ولذلك فإدراك سمة الوحدة في السورة من الإنجازات التي تحسب للباقلاني.
- (٣) ويرسخ عبد القاهر الجرجاني النظرة الشاملة لإعجاز القرآن في سياق شرح نظريته للنظم، مؤكداً من خلالها فكرة وحدة النظم أو الوحدة الفنية في تحليله لبعض شواهد، ولم يقف في ذلك عند الآيات المفردة، وإنما تمتد نظرتة إلى سورة كاملة هي سورة الفاتحة، فيحللها بلاغياً مشيراً إلى وحدتها وترابط معانيها النحوية .
- (٤) ويتفق الزمخشري مع بعض من سبقه من علماء الإعجاز في عنايته بالرؤية الكلية للبيان التي تنظر إلى النص بوصفه وحدة متكاملة ، وهو في نظرتة الشاملة

للبيان القرآني لا يقف عند الوحدة في الآيات المفردة وإنما تتسع نظرتة لتشمل السورة القرآنية، ويحاول تطبيق ذلك في رسالته التي أفردها للحديث عن الإعجاز في سورة الكوثر، ويشير في الكشف إلى بعض مظاهر وحدة السورة القرآنية كحسن الخروج من معنى إلى معنى، وكالتناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها.

٥) ويعد الفخر الرازي من أكثر المفسرين وعلماء الإعجاز القدماء اهتماما بوحدة السورة وذكر المناسبات بين آياتها وترابط أجزائها، ويعنى في تفسيره بوحدة السورة الموضوعية أو المحورية ودورانها حول غرض عام أو موضوع واحد، ويعد أول من صرح بالوحدة الموضوعية للسورة وذلك في سياق تفسيره لسورة "فصلت" وربطه بين أجزائها ومقاطعها ومعانيها.

٦) عني بعض المتأخرين الذين ألفوا في علوم القرآن كعلم المناسبة واهتموا بقضية الإعجاز بوحدة السورة وعدوها فرعا من علم المناسبة، فالقسم الثاني من هذا العلم الذي يدرس المناسبات التي تتصل بالآيات في السورة الواحدة يمثل ما يعرف حديثا بوحدة السورة وتتجسد فيه فكرتها.

٧) من صور العناية بوحدة السورة دراسة بعض مظاهرها كمناسبة فواتح السور لخواتمها، والتناسب بين مطلع السورة وموضوعها المحوري أو غرضها العام وترتيب الآيات في السورة وتناسق معانيها.

٨) هذا وإذا كان بعض علماء الإعجاز القدماء قد عنوا بوحدة السورة ومظاهرها على نحو ما أسلفت، فإن هذه العناية تنمو عند المحدثين من علماء الإعجاز وتشهد تطورا على مستوى التنظير والتطبيق، لذا أوصي بدراسة وحدة السورة القرآنية عندهم؛ لنقف على طبيعة تلك الجهود، ومدى ما شهدته دراستهم من تطور، هذا والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مصادر البحث ومراجعته

- ١) القرآن الكريم .
- ٢) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/٤، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م.
- ٣) أثر القرآن في تطور النقد الأدبي: د. محمد زغلول سلام، مكتبة الشباب، القاهرة، ط/١، ١٩٨٢م.
- ٤) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجان، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط/١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ٥) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر في مصر: د. عدنان حسين قاسم، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط/١، ١٩٨١م.
- ٦) إعجاز سورة الكوثر: جار الله الزمخشري، تحقيق: حامد الخفاف، دار البلاغة، بيروت، ط/١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٧) إعجاز القرآن: لأبي بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط/٤، ١٩٧٧م.
- ٨) الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن: د. عبد الرؤوف مخلوف، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.
- ٩) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط/٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.
- ١٠) البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط/١٥ (د.ت).

- ١١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: د. محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، ط/٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ١٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٢١ هـ.
- ١٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط/١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ١٤) التفسير الموضوعي - التأصيل والتمثيل: د. زيد عمر العيص، مكتبة الرشد، الرياض، ط/١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ١٥) التناسب البياني في القرآن: أحمد أبو زيد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢ م.
- ١٦) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط/٢، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.
- ١٧) سورة فصلت - دراسة بيانية: محمد صالح العلياني، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٢٢ هـ.
- ١٨) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط/٤، ١٩٧٢ م.
- ١٩) عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي، تحقيق: عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ٢٠) القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، بولاق، القاهرة، ط/٣، ١٣٠٢ هـ.

- ٢١) الكشاف: جار الله الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- ٢٢) الكليات: أبو البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٢٣) لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط/٦، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٢٤) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ط/٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٢٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، نشر دار التربية، الرياض.
- ٢٦) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت، ط/١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٢٧) مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز - من الرماني إلى عبد القاهر الجرجاني: عبد الله عبد الرحمن بانقيب، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٢٨هـ.
- ٢٨) مناهج في تحليل النظم القرآني: د. منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية (د.ت).
- ٢٩) منهجية البحث في التفسير الموضوعي: د. زياد الدغامين، دار البشر، عمان، ط/١، ١٩٩٥م.
- ٣٠) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

- ٣١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي، تح: عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٣٢) النظم القرآني في كشف الزمخشري: د. درويش الجندي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٦٩م.
- ٣٣) النقد الأدبي بين القدامى والمحدثين: د. العربي حسن درويش، مكتبة النهضة، القاهرة، القاهرة (د. ت).
- ٣٤) النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.
- ٣٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام: د. حسن محمد باجودة، مطبوعات تهامة، جدة، ط/٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٣٦) الوحدة الموضوعية في القرآن: د. محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- ٣٧) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر الدين الرازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين ن دار العلم للملايين، بيروت، ط/١، ١٩٨٥م.

فهرس المحتويات

٤٥٣	المقدمة
٤٥٦	التمهيد مفهوم الوحدة وقيمتها البلاغية:
٤٦١	المبحث الأول: وحدة السورة عند البلاقلاني (ت ٤٠٣):
٤٧١	المبحث الثاني: وحدة السورة عند عبد القاهر (ت ٤٧١هـ):
٤٧٦	المبحث الثالث: وحدة السورة عند الزمخشري (٥٣٨هـ) :
٤٨١	المبحث الرابع: وحدة السورة عند الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)
	المبحث الخامس: وحدة السورة وصلتها بعلم المناسبة عند الزركشي والبقاعي والسيوطي:
٤٨٧	والسيوطي:
٤٩١	الخاتمة:
٤٩٣	مصادر البحث ومراجعته :
٤٩٧	فهرس المحتويات.....